

اصطفاف البروتينات والأحماض الأمينية

يقول العالم السويدي المشهور "جارلس ايجون كوي Charles Eugenie Guye":

"تتألف جزيئة البروتين من ٤٠,٠٠٠ ذرة. لذا فنسبة احتمال ظهور جزيئة بروتين واحدة عن طريق المصادفات هو احتمال واحد من احتمالات كبيرة وهائلة جداً تبلغ ١٠^{٦٠}".^(١) أترون؟... علماً بأنه عند الأحياء لا نجد جزيئة بروتين واحدة، بل سلاسل من البروتينات. ويقول "الدكتور لوكونت دي نوي Dr. Lecomte de Nouy" عن احتمال ظهور سلسلة واحدة من البروتينات عن طريق المصادفة:

"لا يمكن التعبير عن ظهور سلسلة من البروتينات عن طريق المصادفات إلا باحتمال واحد ضمن رقم هائل من الاحتمالات يبلغ رقم ١٠ أس ٢٤٣.٢^(٢) ولكن الإنسان لا يتألف من سلسلة واحدة من البروتينات، لأن الإنسان يتألف من ٦٠ تريليون خلية. وترتبط هذه الخلايا ببعضها بروابط قوية بحيث إن فساد عضو أو نظام واحد لهذه الخلايا قد يؤدي إلى موت الإنسان. وحياة الإنسان مستمرة ضمن استمرار هذه العلاقات الحساسة

(١) أي إن نسبة الاحتمال = 10^{60} ويساوي الرقم واحد مقسوماً على عدد هائل هو رقم واحد وأمامه ستون صفراً. (المترجم)

(٢) أي إن نسبة الاحتمال = 10^{243} أي العدد واحد مقسوماً على عدد عشرة أس ٢٣٤. ومن المعروف في علم الرياضيات أن نسبة 10^{60} (أي العدد واحد مقسوماً على عشرة أس خمسين) تساوي الصفر في الواقع لضآلته وصغره. (المترجم)

جداً والمتكاملة جداً. وعندما يتأمل الإنسان هذا النظام الدقيق الرائع لا يملك إلا أن يهتف من قلبه: "سبحانك!... ما أعظم شأنك!!"

قبل تناول البروتينات ودورها في الكائنات الحية تأتي الأحماض الأمينية أولاً. تنتظم هذه الأحماض الأمينية في سلاسل معينة مشكلة البروتينات. ولكن البروتينات تحتاج إلى أشياء أخرى لتشكيل خلية حية. كل كائن حي عبارة عن نظام "System" من الجزيئات المتجمعة ضمن تصميم معين. ولكي يستمر في الحياة عليه أن يتغذى ويحصل على طاقة.

وعلم البيولوجيا المناصر للتطور يزعم بأن الكائن الحي الأول حصل على هذه الطاقة من الشمس، كما استفاد من البروق ومن الأشعة فوق البنفسجية. بينما نعرف بأن الكائن في أثناء تشكله وبعده يحتاج للتزود بنسبة معينة من الطاقة بشكل منتظم ودون انقطاع لكي يستمر في الحياة. بينما أشعة الشمس تكون موجودة في النهار فقط إن لم تكن هناك غيوم، ولا توجد في الليل، ثم إن جزءاً كبيراً من السنة يكون شتاءً، لذا لا تكون الطاقة الآتية من الشمس منتظمة وبالمقدار نفسه. أما البروق فليست منتظمة في أي وقت. فهي تحدث مرة ثم تغيب. وعندما تترك البروق تحرق وتهدم. وحتى لو افترضنا وجود نصيب من الصحة في هذا الادعاء فكيف نفسر تنظيم العلاقة المزعومة بين أشعة الشمس والأشعة فوق البنفسجية والبروق وبين ظهور الكائنات الحية؟

التغذي والنمو

لا يقتصر وجود المشاكل في موضوع ظهور الكائن الحي للوجود، بل إن موضوع تغذيته كذلك يحف به الكثير من المشاكل. إذ يجب على الكائن الحي تناول الغذاء لكي ينمو، ولكي يركب مواداً جديدة ضرورية، ليستطيع الاستمرار في البقاء حياً. وحسب ادّعاء التطور فإن الكائن الذي ظهر عن طريق التطور يضطر للتغذي على طريقة تغذي الاميبيا لكونه لا يملك بعد جهاز هضم ولا جهاز تنفس. ولكن حتى هذا مستحيل لسببين: الأول هو كثافة المحيط حواله أي كثافة البيئة، أي يجب تعيير وضبط التوازن بين كثافة السائل الذي يوجد فيه الكائن الحي، وبين كثافة السائل الموجود داخل خلية الكائن الحي. وهذه مشكلة مهمة ودقيقة.

نحن نعلم أن الجزيئات المذابة تسيل نحو الجهة التي تكون أكثر سيالية، ولا تستطيع التوجّه نحو جهة ذات كثافة أكثر. وبالمقابل تسيل الأشياء الموجودة في الوسط الكثيف نحو الوسط الأكثر سيولة. وهذه قاعدة عامة، لذا فإن كان الجو المحيط بسلسلة البروتينات (الموجودة والمتهيأة لكي تنقلب إلى خلية حية) جواً سائلاً وقليل الكثافة فلا يمكن أن ينتقل أي شيء من هذا الجو إلى داخل الكائن الحي، بل تخرج المواد الغذائية الموجودة داخل هذا الكائن إلى الخارج، لذا سرعان ما يهلك هذا الكائن الذي كان مرشحاً للحياة. وإن كان الجو المحيط بهذا الكائن كثيفاً انسابت المواد منه إلى داخل هذا الكائن، فلا يبقى أمام هذا الكائن أي فرصة للتطور لأنه سينتفخ حالاً.

فإن كانت سيولة المحيط بنفس سيولة وبنفس كثافة المواد داخل هذا الكائن انقطع التبادل الغذائي بين هذا الكائن وبين محيطه، فلا يتحقق الامتصاص، فانسدّت أمامه أبواب التطور.

والسبب الثاني: هو لو فرضنا وقلنا بأن هذا الكائن تشكل على الرغم من جميع هذه المستحيلات. إن هذا الكائن يحتاج -إضافة إلى ضرورة التغذية- إلى طاقة لنبد فضلاته وطرحها خارجاً. فمن أين سيحصل هذا الكائن الذي خطا أولى خطواته في الحياة على الطاقة؟ لأنه من الضروري خلق الميدوكوندریات التي هي بمثابة محطات الطاقة في الخلية. وهذا الكائن الحي يحتاج في كل دقيقة وفي كل ثانية إلى الطاقة لا من أجل تناول الغذاء أو رمي الفضلات فقط بل من أجل استمرار في حياته. وبدون تزوده بالطاقة لا يمكنه الاستمرار في الحياة. لذا فما مبلغ صحة الادّعاء إذن بأن الكائن الحي يستطيع التزود بالطاقة من خلال حساء البروتين الموجود في قاع البحار؟

إن حسابات الاحتمالات تشير إلى استحالة انقلاب أي مركب كيميائي تحت هذه الظروف لا إلى كائن حي، بل حتى إلى سلسلة من السلاسل البروتينية. ولكن لنقلُ بأن مثل هذا الكائن الحي قد تشكل وتكوّن، فهذا الكائن لا يبقى على شكله الأوّل بل يتطور. لذا كان من الضروري أن تتطور عنده أجهزة الهضم والدوران والتنفس والإفراغ (أي طرح الفضلات من غائط أو بول أو عرق) بشكل متناسق ومشترك. ولكي يستطيع هذا الكائن الحي الاستمرار في الحياة يجب ظهور هذه الأجهزة معاً وأن تتطور معاً، وأن تعمل بتعاون وتساند فيما بينها. وهذا يخالف ويناقض الفكرة التطورية لدى دارون، لأنها ترى استحالة ظهور مثل هذه الآلية المعقدة بشكل فجائي وفي وقت واحد.

والآن لنستعرض بعض المحالات الأخرى ونتناولها، فنفرض بأن أجهزة الهضم والدوران والإفراغ والتنفس لدى هذا الكائن الحي الأوّل قد تشكلت

تلقائياً وبشكل فجائي، وأن كائناً حياً على شكل دودة قد ظهر إلى الوجود في أحد المستنقعات حسب زعم دارون. هذه الدودة ستكبر طبعاً. فماذا سيكون عمرها؟ وهل سيكون هذا العمر لكي تتطور وتنقلب إلى نوع آخر؟ وعندما تنقلب هذه الدودة إلى نوع آخر هل ستتشكل بعدها دودة أخرى؟ أم أنه ظهرت أعداد كبيرة من الديدان في أماكن عديدة من الدنيا وانقلبت مجموعة منها فقط إلى نوع آخر؟ لنقل بأن الدودة تطورت وانقلبت إلى ضفدعة، ثم انقلبت ضمن سلسلة من التطورات إلى حيوان الكنغر، وأن هذه السلسلة استمرت وتتابع حتى ظهور الإنسان، حيث صغرت الأذان لعدم الحاجة إليها مثلاً.

وهكذا ظهرت في الحياة مختلف أنواع الكائنات الحية. حسناً... ولكن عندما تطور فرد أو بضعة أفراد داخل كل نوع لماذا لم يتطور الأفراد الآخرون؟ وهل هناك آلية لا نعلمها هي التي تقرر هذا الأمر من ناحية عمليات التطور ومدد كل مرحلة منها؟ وهل يمكن إسناد هذه العمليات وظهور هذا النظام الدقيق في الكون، والحياة على سطح الأرض ثم تطورها وتوسعها وتكاملها إلى المصادفات العشوائية، في الوقت الذي تبين قوانين الاحتمالات استحالة ظهور جزيئة بروتين واحدة تلقائياً وبعوامل المصادفات؟ وحتى لو فرضنا أن بضعة أفراد من كل نوع تطور وانقلب إلى نوع آخر، فعمر أي نوع من الأحياء يكفي لحدوث مثل هذا التطور؟ فهل كان عمر هذه الأفراد الذين تطوروا يبلغ الملايين من السنوات؟

لا يملك الداروينيون ولا العلم الإجابة على هذه الأسئلة. وكل ما يستطيعون أمام هذه الأسئلة هو قولهم: "إن هذا هو ما حدث". ويقولون هذا باسم العلم.

أمر مهم آخر أضل الداروينيين

أمر آخر مهم خدع الداروينيين وقادهم إلى الوهم، وهو قيامهم بالنظر من زوايا عدة فروع مختلفة من العلوم إلى نقطة واحدة لمسألة ما. بينما يجب ألا يقع أي علم من العلوم في تناقض مع علم آخر في هذا الكون في أي موضوع من مواضيع النظام في عالم الجماد أو الحياة في هذا الكون ولا سيما في عالم الأحياء. أي يجب ألا تتناقض علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان والجيولوجيا وعلم المتحجرات فيما بينها عند القيام بتفسير الوجود.

ولكن عندما نقوم بأي بحث من البحوث، أو بأي تجربة من التجارب في حقل أي علم من العلوم أو في أي فرع من فروع الحياة فنحن لا نتخذ الطفرات ولا التكيف ولا الانتخاب الطبيعي كسند، أو كقاعدة لهذه الأبحاث والتجارب. إن القوانين التي نكتشفها في الكون وفي الحياة لا تستند إلى الطفرات، أو إلى الانتخاب الطبيعي... الخ.

أي إن ٩٩ % من الأسماء التي نطلقها على الإجراءات الإلهية التي أدت إلى ظهور الحياة واستمرارها، تعمل ضمن نظام معين مستمر منذ ملايين السنوات على المنوال نفسه، ونحن نقوم بأبحاثنا وبتقويمنا وتفسيرنا للظواهر استناداً إليه. فمثلاً نقوم بالاستعانة بعلم العقاقير (pharmacology) وبعلم الطب الوقائي بصنع الأدوية والعقاقير. وعند النظر في تأثيرها وطرق

استعمالها لا نأخذ بنظر الاعتبار أن البكتريات المسببة للأمراض قد تتطور وتنقلب إلى أنواع أخرى.

وعندما تكون هذه المسألة موضوع بحث عند التطورين الذين زعموا أن هذه البكتريات تطورت في السابق، نرى أنهم بذلوا جهوداً كبيرة لتكرار وإعادة مثل هذه التطورات فيها، ولكن عندما يكون الموضوع موضوع علم العقاقير أو إلى علم الطب نراهم لا يؤمنون بمثل هذه التطورات، ولا يأخذون التطور ولا النظريات الأخرى المستندة إليه بنظر الاعتبار. ولا نتوقع في المضادات الحيوية التي نستعملها ضد الأمراض أن تقوم جراثيم مرض الجذام بالتحول عن طريق الطفرات إلى جراثيم مرض السل، أو تحول بعضها إلى جراثيم الكوليرا، ولا نفكر هكذا أبداً. كما يستند الطب الوقائي إلى قاعدة قيام الجراثيم بالحفاظ على ماهيتها.

أجل!.. فكما زود الله تعالى كل كائن حي بآلية الدفاع عن نفسه، كذلك قد تقوم البكتريا ببعض الطفرات داخل النوع عند تعرضه لبعض أنواع الأدوية. ولكن هذا التغير يكون محصوراً فقط في إطار القيام بزيادة قدرته الدفاعية وتطوير نظام المناعة عنده. ولا تؤدي هذه التغيرات الصغيرة إلى طفرات تغير في نوع هذا الكائن، فهذا مستحيل. ثم إن هذه الكائنات كائنات مجهرية. والتغير الذي يصيبها في ثلاثين سنة يعادل ملايين السنين لدى الإنسان. وإذا كان من غير الممكن حصول تغير في النوع عند هذه الكائنات الصغيرة في ثلاثين عاماً، فهذا يدل على أن عمر الأرض لا يكفي لحصول التطور. هذا علماً بأن العلم أثبت أن الطحالب الزرقاء والخضراء التي تعيش في البحار كانت موجودة قبل خمسين مليون سنة.

إذن دع عنك موضوع الثلاثين سنة فإن هذه الأحياء لم يصيبها أي تغير أو تبدل خلال خمسين مليون سنة، وهي اليوم كما كانت في السابق.

الوجود الزوجي: الذكر والأنثى

ونستمر في فرض وقوع بعض المستحيلات والمحالات فنقول بأنه تم ظهور الديدان عن طريق التطور. ولكننا نلاحظ وجود الزوج لا في الأحياء فقط، بل في الجماد كذلك. والذين يقومون برسم صور القرد وهو يقترب من الإنسان مرحلة مرحلة يرسمون في الأخير صورة رجل غربي في متوسط العمر. ولكنهم لا يقولون شيئاً حول كيفية ظهور المرأة. لذا نتساءل: كيف ظهرت الأنثى الأولى لهذا الكائن، وأين؟ وهل ظهرت بجانب الرجل أم في مكان آخر؟ وكيف عثر أحدهما على الآخر؟ ومن أين حصلوا على غريزة التزاوج؟ وهل كان هذا أيضاً نتيجة المصادفات؟ ثم هل فكر أحدهم في عدد السنوات اللازمة لتحول مئات الآلاف من الأنواع من نوع إلى نوع، ثم نشوء الأجيال الجديدة من ذكر وأنثى وتوزعها في كافة أرجاء العالم؟

الخلية والفعاليات المختلفة فيها

أودّ هنا أن أوجّه الأنظار إلى نقطة أخرى، وهي أن للخلية خاصية الحفاظ على نفسها، وهي تعمل عمل حكومة، وتعد جزئيات D.N.A. الموجودة فيها بمثابة قائد أو حاكم يقوم بتعيين طبيعة بنية الإنسان البيولوجية. ثم هناك جزئيات R.N.A. التي تقوم بعمل المهندس والكيميائي فيقوم بعمليات التركيب والدمج، وكأن القدر أودع موضوع تعيين وضع الإنسان وماهيته في هذه الجزئيات. وهذه الجزئيات تحتوي على معلومات موجودة بشكل شفرات والتي تملأ مئات المجلدات، وتظهر عندما يحين الوقت المناسب بشكل تفاعلات تؤدي إلى صنع البروتينات اللازمة للخلية. ولم يجد الفكر المادي مرجعاً لهذه العمليات الباهرة وهذه الآلية المدهشة التي ترسل بموجبها جزئيات D.N.A. الشفرات إلى جزئيات R.N.A. التي تقوم بفك هذه الشفرات إلا إسنادها إلى هذه الجزئيات وإلى المصادفات.

ومع أننا لا نملك اليوم معلومات قاطعة حول الخلق الأولي للخلية فإن العلم الحديث يعطي لنا معلومات كثيرة حول الخلية، حيث يعرض كل جزء من أجزائها أمامنا، ويوضح لنا مدى التعقيد الذي تتميز به الخلية. ولو كان دارون يملك المعلومات الحالية عن الخلية لقال عنها ما قاله عن العين. فهو يقول في رسالة له إلى صديق: "كلما فكرت في العين زادت حيرتي وذهولي"، لأنه لم يكن يستطيع تفسيرها بالانتخاب الطبيعي. ولو استطاع أن ينظر إلى الدماغ وكيفية ظهوره لتضاعفت حيرته وذهوله.

من الصعب سرد جميع خواص الخلية، ففيها فعاليات كثيرة كفعاليات جيش كامل. فكل ما يحتاجه الجسم يركب هناك ويصنع. وللخلية غشاء يملك جزيئات لها شفرات تميز بها الخلية المواد النافعة من المواد الضارة. وإذا ظهرت الحاجة أضيفت شفرات أخرى كذلك. وتتصرف هذه الجزيئات كنقاط شرطة وحراسة، أو كموظفي الكمارك، فتفتح الأبواب أمام المواد المفيدة، وتبدي ردود فعل ضد المواد الضارة، وتعلن حالة الطوارئ في الخلية. وتبدي الخلية مقاومة ضد أي تدخل أجنبي، وإذا لم تستطع المقاومة تمرض، وأحياناً تموت. هنا تتعاون خلايا الجسم وتقوم بإخراج هذه الخلية الميتة خارج الجسم.

عند وقوع تدخل خارجي على خلية ما تقوم هذه الخلية بمقاومة التدخل، وترمي بالجراثيم الضارة خارج الجسم. أما إن عجزت عن المقاومة مرضت وماتت. وقد يؤدي هذا المرض إلى موت الإنسان. وهذا يعني أن أي تدخل خارجي لا يستطيع تغيير ماهية الخلية. وإذا لم تكن المادة المتدخلة متكيفة مع الخلية ومفيدة لها قامت بإفسادها أو سعت بها إلى الموت.

والخلاصة أنه ليس من المستحيل ظهور وتكون كائن حي فحسب، بل لا يمكن أن يحدث أي حادث تلقائياً ومن نفسه. فلا يستطيع حجر صغير أن يغير مكانه تلقائياً، ولا يتعرض للتآكل دون حدوث تأثير خارجي. وألا يكون غريباً أن نقوم بإنكار الخالق وإنكار خلقه للكون ولجميع الأشياء والحوادث وإدارته الدائمة لها؟ وربط كل شيء وكل حادثة كذلك بسلسلة السبب والنتيجة، وإنكار وجود أي شيء خارج القوانين، والنظر إلى الطبيعة وكأنها عبارة عن هذه القوانين، وإنكار وجود أي تأثير آخر خارج الطبيعة وخارج قوانينها!!

أي إننا بهذا نعزو الألوهية إليهما، ثم نتناقض مع أنفسنا فدعي -من أجل إنكار الألوهية- أن هذا الكون الرائع وكل ما يحويه ظهر تلقائياً. وهل

هناك مثال آخر لإنكار بهذه الشناعة وبهذا البعد عن العلم وعن العقل وعن المنطق؟ بينما نرى أن الإنسان قد جُهِز بقابليات وملكات كثيرة ومتعددة ومدهشة من الناحية الذهنية والقلبية. وهو مع هذا صاحب شعور وإرادة، وله علاقات وارتباطات مع الزمان والمكان. وعلاوة على هذا فهو لا يكتفي بهذا بل تراه يهتم بما وراء الزمان والمكان.

وعدا هذا فهو مجهّز بعواطف لا تعد ولا تحصى، لذا فهو مخلوق كامل مرشح لحياة خالدة. لذا فإن النظر إلى مثل هذا الوجود الإنساني وكأنه مرتبط فقط بالمادة وبالطبيعة وبالمصادفات والقوانين التي لها قيم نسبية فقط، وبفرضيات - كفرضية التطور - يعد أكبر إهانة للإنسان وللإنسانية ولأصحاب هذه الفرضيات أنفسهم. أجل ما من أحد غير الإنسان يستطيع فعل ما فعله الإنسان نفسه ضد الإنسان. ولهذا نرى أن القرآن الكريم يصف هؤلاء - الذين خرجوا واستقلوا عن الإنسانية - بأنهم ظالمون.

رحلة قصيرة في العالم الخارجي وفي داخل أنفسنا

يديم كل موجود صغيراً كان أم كبيراً في هذا الكون وجوده ضمن توازنات دقيقة وحساسة جداً ومذهلة. وهل يستطيع الإنسان وهو يرى الحكمة والمصلحة والتناسق والتلاؤم الموجود في كل شيء في هذا الكون والوضع العام له ألا يفكر في الخالق وألاً يصيح: "الله أكبر"؟ هنا لا نحتاج أن نذهب بعيداً أو نفكر بهذا أو بذاك، بل يكفي أن نتمتع في أنفسنا وفي أجسامنا، حيث نرى أن جميع الفعاليات معيرة ومنظمة بواسطة الهرمونات وآليات الأعصاب، ويظهر نظام (System) دقيق وخارق للعادة.

وتقوم جميع الأعضاء وكذلك جميع الخلايا بأداء الوظائف الملقاة على عاتقها دون أي خلل أو قصور ونحو هدف واضح ومصلحة واضحة، دون أن تتسبب في أي ضرر لأي جزء من أجزاء الجسم ولا في نظامه أو عمله. وبما أنه لا يمكن التفكير في وجود أبسط ساعة أو في توقع وجودها من دون صانع، فكيف يمكن تناسي وجود من يرى ويعبر ويقود جميع الفعاليات الحيوية الدقيقة الجارية في جسم الإنسان والتي تفوق دقة الساعة وتعقيدها بملايين المرات؟ إن هذا سيكون أكبر إهانة للفكر وللتفكير نفسه.

إن الدقة الكبيرة الموجودة في الكائنات الحية، والكمال الموجود في أعضاء حواسها، وامتلاك كل كائن أكثر الأعضاء والحواس ملائمة له، يشير إلى وجود من يرى كل شيء ويعلم كل شيء ويملك علماً لا يحده حد. وفي

ضمن إطار هذا العلم نلاحظ تخطيطاً دقيقاً ومتكاملاً، وقدرة تقوم بتحقيق هذا التخطيط. وإلا فكيف يمكن تفسير كل هذه الأمور؟

ومن أجل إلقاء بعض الضوء على هذا الموضوع دعنا نُشيرُ إلى أمرين أو ثلاثة باختصار: "ماذا كان يفعل طائر البجع (Pelican) المسكين -الذي يملك منقاراً وفماً يساعد على أكل السمك- لو لم يجهز برجلين غشائيتين تساعدانه على السباحة؟ أنستطيع أن نقول إن هذا الطائر فكر كثيراً ثم قرر أن يطور لنفسه منقاراً ورجلين غشائيتين؟ وهل نستطيع أن نقول إنه طور معدته وجهازه الهضمي بنفسه حتى وصل إلى وضعه الحالي؟ أم نعزو كل هذا إلى المادة وإلى الطبيعة التي لا تعرف لا هذا الطائر ولا حاجاته ولا السمك ولا الماء؟ أم نعزو كل هذا إلى رياح المصادفات العمياء التي ظهرت أهما غير موجودة في الطبيعة بدءاً من أصغر أجزائها إلى أكبر أجرامها السماوية؟ أم نزعم بأننا نستطيع حل هذه المسألة بنظرية التطور التي تستند إلى الطبيعة وإلى المادة والمصادفات العشوائية؟

واعجباً!.. ما أضعف هذه الادّعاءات!! وما أهزل ما تستند إليه!! وأليس من أكبر الإهانات لنعمة العقل عزو جميع الصفات الموهوبة للملايين الأحياء من أنظمة التغذية والتناسل والوقاية والصيد... الخ الخالية من أي خطأ أو خلل، ولباس الجلد الذي فصلّ تماماً على أجسادها وكأن خياطاً ماهراً قام بتفصيله لباساً وزينة لها... أممكن عزو كل هذا إلى المادة الميتة الخالية من العقل ومن الشعور، أو إلى القوانين الطبيعية؟

ونرى في عالم النباتات أيضاً هذه الحيوية الباهرة، وهذا التناسق والتناغم، وهذا النظام الذي لا يبارى، ونقرأ إشارات حافلة بالأسرار عن قوة لانهائية تحيط بكل شيء. ولو استطعنا تحقيق رحلة أو سياحة تنطلق مما يبدو أضال شيء وأقله أهمية، فمن يدري ماذا سنشاهد وماذا سنرى، حتى إن القلوب الواعية والعقول المفكرة سترى أشياء عجيبة حتى في حشرة العث التي تعيش

على المواد المتعفنة والتي تلعب بعض أنواعها دور إكسير الحياة. ففي كل ركن من أركان الكون هناك أمارات وإشارات تمس بوجود حكيم مطلق الحكمة زين هذا الكون بالحكمة والفن والعلم والاقتصاد.

ولو قمنا بنزهة قصيرة في العالم الخفي لديناميكية الهواء وفي عملية تلقيح النباتات بواسطة الريح لرأينا أموراً عجيبة ومدهشة. ولو استمعنا إلى لسان الحكمة والفن في كوز شجرة الصنوبر فقط، ودخلنا إلى العالم الخفي لعملية تلقيح حبوب الطلع للخلية الأنثوية، وفهمنا الحوار المخوف بالأسرار بين الرياح والنباتات لتجلت لنا لوحات بديعة، وفهمنا معاني همسات سحرية في هذا العالم البديع.

لقد خلق الخالق العظيم كوزات كل نوع من أنواع الراتنجيات بشكل مختلف. وكل نوع من أنواع الكوز هذا يعمل على حصول تيار هوائي خاص به، وبهذه الطريقة يقوم بتحميل حبوب طلع نوعه بأفضل أسلوب، وإجراء عملية التلقيح بأفضل شكل. ففي كل نوع من أنواع الصنوبر يلعب قطر الكوز وطوله وشكله وعدد حبوب الطلع والزواية التي يشكلها الكوز مع المحور العمودي وسرعة الريح دوراً مهماً في عملية التلقيح. وهناك آلية لم يتم الكشف بعد عن أسرارها يقوم كل نوع من أنواع الصنوبر بها بتنقية حبوب طلعها بواسطة أكوازه في الهواء. وعملية التنقية هذه تجعل حبوب الطلع الملائمة تطير في الهواء، كما تمنع الأعضاء التناسلية للفطر من الوصول إلى بويضة الشجرة.

ودعنا الآن نقم برحلة قصيرة في الغابات التي تعد "رئات المدن" والتي أصبحت اليوم عليلة ومنهكة القوى، وضعيفة، لنرى التساند الوثيق بين الأشجار وبين الإنسان ولا سيما غنى الغابات الاستوائية من الناحية البيولوجية، حيث نشاهد علاقات قوية بين أنواع عديدة من الحيوانات والنباتات، وجريان هذه العلاقات في جو مذهل من التلاؤم والتناغم.

وعلى الرغم من التشابك الشديد الذي يظهر في الفعاليات الحياتية في الغابات الاستوائية، فهناك نظام في غاية التناسق بحيث تنبته القلوب الحساسة إلى مدى الروعة الموجودة فيه وكأنها تسمع شعراً أو موسيقى. إن روعة الفن الالهي الظاهر في الغابات الاستوائية وكماله يبدو ظاهراً بشكل واضح، فلا يتم أي إسراف حتى في أبسط مادة وأصغرهما.

وكل موجود عندما يحين أجله يتحول من قبل أحياء موظفة من أجل الاستفادة منه وإعادة تبه بعد مدة وجيزة إلى مادة مفيدة للغابة. وهذا التوازن المستمر منذ ملايين السنين، وهذا التلاؤم والتناغم، وهذا التقسيم الخارق للعمل، وسلسلة التعاون المدهش المتحقق بين النباتات والحيوانات، وهي مخلوقات مختلفة بعضها تماماً عن البعض الآخر، من الصعب على الإنسان حتى في المستقبل القيام به على ما أعتقد.

وإذا أتينا إلى عالم الحيوان نرى أن هناك حوادث خارقة للعادة إلى درجة لا يمكن تفسيرها حتى بالعقل والشعور. والمنبع الأساسي وراءها هو العلم والإرادة اللانهائيتان اللتان تحتضنان الوجود كله. وإلا فمن خداع النفس القيام بتفسير كل هذه الروعة بمصطلح غائم وضبابي لا تعرف ماهيته مثل "الغريزة".

إن تزود الحيوانات ببنية تشريحية مناسبة لطراز الحياة التي تعيشها، (مثلاً وجود نسيج اسفنجي يمتص الصدمات في قاعدة منقار نقار الحشب) والنظم الداخلية والاجتماعية والاقتصادية الموجودة لدى صغار الأحياء كالحل والنمل والنمل الأبيض، وشبكة المعلومات، وقابلية تعيين الاتجاهات، والتسلسل الوظيفي القائم على التعاون فيما بينها، والنجاح الكبير الذي تبديه في الحصول على أغذيتها، وعلاقتها المشتركة مع الأشجار والأعشاب الموجودة في بيئتها، تظهر أنها خلقت خلقاً كاملاً.

وهذه الطيور التي تقدم للإنسان موديلات في العديد من المساحات

التكنولوجية، والجراد والعناكب التي كل منها مجهزة بتراكيب وبنى تكون نموذجاً للإنسان، ولا سيما الأشكال العديدة للطيران عند الطيور، حيث إنها لا تزال متقدمة على تكنولوجيا الطيران عند الإنسان وسابقه لها على الرغم من كل هذا التقدم التكنولوجي.

كذلك فإن الأنعام التي تصدرها الطيور والحشرات علاوة على كونها تعد وكأنها قطع موسيقية من ناحية الإيقاع فهي تقوم بمهمة التخاطب والتخاير. ونرى أن للنعابين والحيات -مع كونها محرومة من الأيدي والأرجل- خصائص تمكنها من الصيد. ونرى المزايا التي تتمتع بها الضفادع من أجل المحافظة على حياتها، وكذلك إدامة نسلها ونوعها. ثم هناك الأحياء المائية والمستعمرات المرجانية في الجو الساحر للبحار، والأجهزة الحساسة للعقارب، وتصرفاتها التي تقوم بها لحفظ نوعها، وكذلك أمور عديدة جداً وكلها تشير إلى الخوارق العديدة التي وإن لم تدفع التطورين إلى الإيمان - لأنهم يتبعون أهواء أنفسهم- إلا أنها كافية لحشرهم في زاوية ضيقة وإفحامهم وإسكاتهم.

نستطيع إدامة رحلتنا في ساحات المرض والصحة والأدوية والمداواة ونظام المناعة في أجسامنا، وفي دنيا الجراثيم. فهذه المخلوقات الصغيرة جداً التي نقوم نحن بمكافحتها عادة بالمضادات الحيوية وبالأدوية الأخرى قد خلقت من أجل فائدة الإنسان والمخلوقات الأخرى لتأمين التوازن. أجل! إن هذه المخلوقات المجهرية التي لا ترى بالعين المجردة لصغرها تقوم بخدمة الإنسان. ومع أنها تكون ذات فوائد كبيرة حيناً، تكون ذات مضار أيضاً في المحيط السيء الذي نقوم بتهيئته.

ونحن نشاهد كيف أن نظام المناعة الموجود في أجسامنا -والذي يعدّ من أعقد الأنظمة وأكثرها خفاءً وأسراراً- في يقظة دائمة وانتباه ضد الأمراض، وكيف يقوم وكأنه أركان حرب بالتدخل في الوقت المناسب وفي المكان

المناسب، وبالدخول في صراع مع مختلف الجراثيم ولا سيما مع الخلايا السرطانية. ومن المتوقع أن تظهر الجوانب الأخرى المخفية له في المستقبل، وعندئذ يكون في الإمكان -بإذن الله- التغلب على الكثير من الأمراض التي تبدو الآن مستعصية على العلاج، لذا فأمالنا معقودة على هذا. وعلى الرغم من قيام أجسامنا بنضال ناجح عموماً ضد الخلايا السرطانية، إلا أن جهاز المناعة لا يكفي وحده في هذا الخصوص، لذا تتم تجربة طرق خطيرة في علاج هذا المرض. ونحن نأمل حصول تقدم أكبر في هذا الصدد بإنتاج مواد مضادة، ونظراً لعدم استعمال الأشعة والنظائر هنا يكون الضرر الملحق بالمرضى أقل بكثير. وسيأتي يوم تتخلص فيه البشرية من هذا الكابوس.

وعلى الرغم من كل هذه الحقائق الواضحة فإن قضية إنكار الله تشغل حيزاً كبيراً في هذا الفكر المادي الذي أقيم على أساس الديالكتيك والصراع، وهو وبفكر مسبق ودوغمائي لا يرى شيئاً خارج المادة ولا يعترف به. وبعد أن يقوم بكل عجالة ودون تمعن كاف بإنكار الخالق العظيم، نراه يحاول تفسير النظام والتناغم ولوحات الجمال المتداخلة بعضها في بعض في أرجاء هذا الكون بعبارات مبهمة وباهتة وضبابية أمثال (القوة، المادة، الطبيعة) مع تناسي الحكم والمصالح والمنافع التي تتجلى في القوة وفي المادة.

لذا فكان من المحتم عزو كل هذه الخوارق التي تبدو في الآثار البديعة والفنون المتجلية في شتى المعارض على الأرض، وصور الجمال والنظام والدقة المتجلية في الكون إلى ذات علوية يرى كل ما خلقه وصنعه ويعلمه، بدلاً من عزوها وإسنادها إلى المادة الصماء الخالية من الحياة ومن الشعور، وهم بذلك ارتكبوا أغرب خرافة فكرية وأحرقها وأشنعها.

إن النظريات المادية من أمثال "الوجودية" و"الحياة" التي ضللت العديدين حتى الآن، تم تناوّلها من قبل العديد من المفكرين مرات ومرات بطرق وأساليب مختلفة، وقومت بطرق وأساليب مختلفة، وفي النهاية لم يستطع أحد

أن يدخلها بأي أسلوب ماكر في دنيا العلوم الوضعية ولم تتم البرهنة على صوابها على الرغم من محاولات التجميل العديدة التي قاموا بها، ومحاولات تحبيسها إلى الجماهير، وتبين في الأخير أن هذه النظريات لا تملك أي مصداقية، ولا أي نصيب من الصحة.

وقد تبين في أيامنا بكل وضوح بأن الوجود كله مرتبط بقوانين معينة هي من صنع قدرة لاهائية سامية فوق كل شيء، وأن الحياة وجميع خصائصها تختلف عن الخصائص المادية. فإن أردنا إيراد مثال على هذا نقول مثلاً معروفاً للجميع وهو أنه على الرغم من تعرض المادة -التي ينسبون إليها كل شيء- إلى تغيرات مستمرة في أبداننا فلا تتعرض حياتنا ولا ماهيتنا لأي تغيير، بل تستمران بشكلهما الأصلي، وهذا مثال واحد حول موقع المادة ودرجة تأثيرها ومدى ثقلها في الأحياء.

والحقيقة أن جميع الاكتشافات الحديثة للعلم تبين أن المادة ليست رقيقة ومسيطرة على كل شيء مثلما يدعي الماديون، وليست جميع الأشياء عبارة عن دورات للمادة ← الطاقة، والطاقة ← المادة، وأن خلق الوجود ودوامه معقد بدرجة كبيرة بحيث يستحيل تفسيره بالمصادفات، أو عزوه إليها، وأن قواعد النظرة المادية ضعيفة ومتهاشة، وإن كانت من قبل تبدو قوية ومتماسكة.

إن المادة سواء على سطح أرضنا أو خارجه عمياء وصماء وخالية من الحياة ومن الشعور، لا تستطيع إدارة نفسها بنفسها ولا تحريك نفسها بنفسها. كما يستحيل على الأجزاء المكونة للمادة القيام تلقائياً وإنجاز هذه الخوارق. إن القدرة اللاهائية هي التي تدفع الموجودات من ظلام العدم إلى الوجود، وتهب الحياة لبعض الموجودات وتجمع الذرات وتحركها وتدفع بها في الشعيرات الدموية الدقيقة، وهي التي تدفع الموجودات -ببرامجها النابعة من العلم اللاهائي- بعد خلقها نحو الغايات التي خلقت من أجلها.

وبناء على هذا فإن كل شيء، بدءاً من أصغر أجزاء الذرة إلى أكبر منظومة كونية في تناغم وتلاؤم فيما بينها، وفي علاقات منظمة وموزونة. لذا فإننا نعدُّ أن النظر إلى أن كل هذا من الخصائص الأساسية للمادة الخداع ووهم، وأن هناك حاجة إلى نظرة أصح وأكثر إلى الأشياء وإلى الحوادث عند القيام بتفسيرها.

أجل! فمن ناحية هناك الخلق الأولي الذي يعد معجزة المعجزات، ومن ناحية أخرى هناك عمل جميع المنظومات منذ خلقها حتى الآن بكل نظام ودقة، والمحافظة على هذا النظام الساري في كل مكان، إضافة إلى توسع المكان أي الكون، وقابلية الكون على الانقسام في أثناء هذا التوسع إلى أجزاء تحولت فيما بعد إلى كتل المجرات. فكيف نستطيع تفسير كل هذه الأمور المتناقضة فيما بينها؟

فماذا تعني مثلاً قوة الجاذبية الموجودة بين الكتل -وهي قانون وقوة خلقها الله تعالى- التي تتناقض مع قوة توسع الكون وتعاكسها؟. وكذلك نرى أن الدماغ يؤدي وظائف مختلفة ومتناقضة فيما بينها في اللحظة نفسها، وأن أموراً وأوضاعاً وأحوالاً عديدة مختلفة تظهر فجأة، فإذا لم ننسب كتاب الكون -الذي تظهر فيه الفروق ضمن وحدة شاملة، والتناقضات ضمن إطار من الوحدة- إلى صاحبه الحقيقي، فكيف نستطيع تفسير خصائصه وما يتقلب فيه من حوادث وأمور؟

إن قمنا بإغماض أعيننا عن الخلق الأولي، وتناولنا كل ما ظهر بعد ذلك من الأحياء وكل شيء وكأنه واضح وظاهر ولا يحتاج إلى أي إيضاح أو تفسير... إن فعلنا هذا ألا يعد هذا التصرف ضربة موجعة إلى العلم وإلى الكرامة العلمية؟